من ذكريات الحملة الفرنسية

رستم مملوك الامبراطور

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يرقد نابوليون فى مثواه الخالد فى مؤخرة صرح الانفاليد بباريس ، فى تابوت من المرمر القاتم ، تظلله قبة فخمة رائعة ، وقد ركزت حوله عدة من الأعلام التى ظفر بها الامبراطور فى الوقائع الشهيرة التى خاضها وكان النصر حليفه فيها مثل ماريجو ، وفاجرام ، وايلو ، وأوسترلتز ، وينا ، والاهرام ، وغيرها ؛ وقد استوقفنا يوم أتيحت لنا زيارة قبر الامبراطور منظر ذينك العلمين الممزقين اللذين كتب أمامهما موقعة الاهرام ، فلم نستطع أن نميز لهما لوناً أو علامة خاصة أو أن نقرأ فيهما شيئاً

كانت الحملة المصرية من أعظم الحوادث التى تركت فى ذهن نابوليون أثراً خالداً ؛ ومع انها اختتمت بالفشل من الوجهتين العسكرية والسياسية فانها تركت من الوجهة المعنوية أعمق الآثار ؛ ولم يكن نابوليون حين مقدمه إلى مصر فاتحاً يبحث وراء طالعه فقط ، ولكنه كان يتصور انه يستطيع أن يعيد حلم الاسكندر ، فيبدل الأمم والحضارات ؛ ومن ثم فقد حشد فى جيشه المطابع والأدوات العلمية إلى جانب المدافع ، والعلماء المبرزين فى كل فن إلى جانب الضباط والقادة ؛ ولم يكن ظفر نابوليون بفتح مصر والبقاء فيها مدى حين ، ليضارع تلك الجهود البديعة التى اضطلع بها علماء الحملة الفرنسية لدراسة مصر وحضارتها ، وتلك النتائج العلمية الباهرة التى وفقوا اليها ، ودونوها فيما بعد فى كتاب « وصف مصر » أعظم وأقوم موسوعة ظهرت عن مصر ، فى العصر الحديث

ولما عاد نابوليون من مصر إلى فرنسا حينما تعقدت الحوادث وتجهمت ، (اكتوبر سنة ١٧٩٩) ، لم يكن لديه أمل فى استبقاء مصر طويلا ، ولكنه أراد أن يغادرها جنده فى أفضل الظروف والشروط ؛ وهذا ما وقع بعد قليل ، فقد انتهت الحوادث بجلاء الفرنسيين عن مصر فى أواخر سنة ١٨٠١ ؛ ولكن نابوليون لم يقطع صلته بمصر ، ولم ينقطع اهتمامه بشئونها ؛ فقد عنى بعد ذلك بتأليف لجنة من العلماء الذين رافقوا الحملة إلى مصر مثل برتوليه ومونج وفوربيه ، لتضع موسوعة شاملة عن مصر ، وظهر أول مجلد من هذه الموسوعة ، أو كتاب وصف مصر الذى أشرنا اليه فى سنة ١٨٠٩ ، واستمر صدورها بعد ذلك أجزاء متعاقبة الى سنة ١٨٢٦ ، وكانت من أعظم ثمار الحملة العلمية

ولبث نابوليون وثيق الصلة بمصر وذكرياتها عن طريق آخر ؛ ذلك هو حرسه الخاص الذى ألفه من بعض المماليك والأقباط والترك والسود الذين اصطحبهم معه من مصر ؛ وكانت هذه الفرقة المختارة التى يرتدى أفرادها الثياب الشرقية الزاهية ويركبون الخيول المطهمة تصحب الفنصل الأول ، ثم الامبراطور ، فى غدواته وروحاته ، الى التويلرى وماليزون ؛ وكان منظرها الفخم الروع معاً ، يثير طلعة الباريسيين ودهشتهم ، فيحتشدوا لرؤية أولئك الفرسان الشرقيين ، أولى الشوارب المفتولة ، والعمائم الملونة ، والثياب الفضفاضة ، كلما مر ركب نابوليون

وكان عميد هذه الكوكبة المختارة جندى مملوك يدعى رستم . ولرستم مع نابوليون قصة طريفة نرويها فى هذا الفصل . كان رستم أحد أولئك المماليك الذين يصعب تعقب أصولهم أو حياتهم الأولى ، ألقى به القدر الى القاهرة بعد أن بيع مراراً وافى خطوبا ، وقدم الى بونابارت فى القاهرة حينما طلب أن يؤتى له ببعض الأدلاء الوطنيين . وكان رستم يومئذ فتى فى عنفوانه وسيم المحيا ، فراق نابوليون منظره ، وسأله حسبما يقرر لنا رستم بعد ذلك فى مذكراته ، هل يجيد الركوب والطعان ، فأجاب رستم بالايجاب . وسأله نابوليون عن اسمه ، فأجاب ان اسمه الأخير يحيى ، ولكن اسمه الحقيقى الذى سمى به فى بلاد الكرج مسقط رأسه هو رستم ؛ فأمره نابوليون أن يتسمى بهذا الاسم ، ثم وهبه سيفاً دمشقياً رصعت قبضته ببعض الجواهر ، ومسدسين زينا بالذهب ، وألحقه بخدمته

ولم تمض أيام قلائل حتى اضطر نابوليون الى مغادرة مصر مسرعاً الى فرنسا ، فلم ينس أن يصطحب معه مملوكه الجديد رستم على ظهر السفينة « موبرون » التى أقلته الى فرنسا مع بعض علماء الحملة من أصدقائه ؛ وكان رستم يختص بخدمة سيده الجديد ، ويقضى المساء على مقربة من الحلقة التى تتألف كل ليلة فى مؤخرة « موبرون » من نابوليون والعالمين برتوليه ومونج

يتحدثون فى الشئون العامة أو يلعبون الورق ؛ وكان نابوليون كثيراً ما يقول لمملوكه انه سيجد فى باريس كثيراً من المال والنساء الحسان ، فيطرب رستم ، وتضطرم مخيلته بالأحلام اللذيذة ، ويتذكر ماضيه التعس الحافل بصنوف البؤس والمخاطرة ، وما أسبغ الحظ عليه من رعاية ذلك السيد العظيم الذى سيقوده إلى مستقبل حافل بصنوف السعادة والنعيم

ووصلت « مويرون » الى المياه الفرنسية بعد رحلة خطرة دامت نحو خمسين يوماً ؛ ولما وصل رستم فى ركب سيده إلى باريس ، رأى منظراً رائعاً لم يتصوره من قبل ، وسحرته عظمة العاصمة الفرنسية ، التى لم تكن القاهرة أعظم مدينة شاهدها فى الشرق الى جانبها شيئاً مذكوراً ؛ ولم تمض أشهر قلائل حتى ظفر نابوليون بالغاء الحكومة الادارية المؤقتة (الديركتوار) ، وصدر دستور القنصلية (ديسمبر سنة ١٧٩٩) ، وانتخب نابوليون قنصلاً أولا ، وانتخب معه صديقاه كامباسير ولبرون كقنصلين ثان وثالث ؛ وهنا جاء دور رستم فى الظهور الى جانب سيده فى المواكب العظيمة ، وكان نابوليون يتوق دائماً الى أن يحيط نفسه بتلك المظاهر الشرقية الساحرة ، فكان رستم يتقدم عربة القنصل الأول دائماً ، وهو على ظهر فرس بديع ، وقد ارتدى صدرية من القطيفة الزاهية فوق ثوب واسع ، ووضع على رأسه عمامة بيضاء أنيقة ؛ وكان منظره الشائق الساحر معاً أجمل ما فى ركب القنصل حين يغدو وحين يروح

وجاء دور الامبراطورية وتألق نجم رستم سراعا ، وشهد الحفلة الدينية الكبرى التى توج فيها الامبراطور بالرغم من معارضة رجال الكنيسة ، وأعد له بهذه المناسبة ثوبان فاخران وضع رسمهما « إيسابى » مصور الامبراطور ، وظهر رستم فى كنيسة « الانفاليد » وعليه صدرية من الكشمير الفاخر المطرز بالذهب وعمامة رائعة الحسن ، وذاعت شهرته حتى أصبح من طرائف باريس التى يعنى برؤيتها كل زائر للعاصمة ، وطبعت صورته ووزعت بالألوف فى جميع أنحاء فرنسا ؛ وأغدق الامبراطور على مملوكه العطاء والصلة ورتب له عدة رواتب حسنة حتى غدا من أهل اليسار والنعم ؛ وكان الامبراطور يثق به ثقة لاحد لها ، فلم يكن من أقطاب حرسه الخارجى فقط ، ولكنه كان حارسه الأمين فى حياته الداخلية أيضاً ؛ فكان ينام عند عتبة غرفة الامبراطور فى البهو الملاصق ، وكان هو الذى يحمل العشاء إلى الامبراطور والامبراطورة حينما يكونان فى الفراش ؛ وكان ملحوظا بالرعاية من جميع أعضاء الأسرة الملكية والحاشية ، حتى أن الملكة هورتنس ابنة الامبراطورة جوزفين ، وزوجة الجنرال مورات ، عنيت بتصويره ، وكانت تغنى له المقطوعات الساحرة حتى لا ينام أثناء التصوير

وتاقت نفس رستم إلى الزواج ، وهام بحب آنسة تدعى دوفيل وهي ابنة أحد منادى الامبراطور ، وكانت رائعة الحسن فى التاسعة عشرة من عمرها ؛ ولما طلب رستم يدها قامت فى سبيله بعض صعاب شكلية لأنه لم يكن كالفتاة كاثوليكي المذهب ، ورفض الأسقف الموافقة على هذا الزواج ، فتدخل الامبراطور وقضى على هذه الصعاب ، وتم زواج رستم بالآنسة دوفيل فى سنة ١٨٠٦ ؛ ورزق رستم منها غلاما سمي «أشيل» ، فطرب الامبراطور لمولده وأغدق العطاء لمملوكه

وظل رستم متمتعاً برعاية الامبراطور ، يمرح فى ظلال النعماء والنفوذ ، حتى وقعت الكارثة ، وهزم نابوليون فى حرب التحرير واضطره الحلفاء الظافرون إلى التنازل عن العرش والسفر إلى جزيرة « إلبا » ؛ وهنا سئل رستم كما سئل المخلصون من حاشية الامبراطور ، عما إذا كان يرغب فى مرافقة الامبراطور إلى المنفى ، فتردد رستم فى اللحاق به ، وهرول إلى زوجه فى باريس مغادراً ذلك القصر الذى أنفق فيه أعواما طوالا متمتعاً برعاية أعظم رجل فى فرنسا ، وفى أوربا بأسرها ؛ ودلل بذلك على أثرته ، ووضاعة نفسه ؛ بيد أنه ندم على فعلته بعد ، حينما رأى بداية العهد الجديد تميل إلى اضطهاد كل من كانت له صلة وثيقة بالعاهل المنفي ؛ وكانت فرقة المماليك التى ينتمى إليها رستم قد انحلت مع مرور الزمن وغادرها معظم رجالها ومات عدد منهم ، وبقي رستم بعد ذلك أبرز أعضائها القدماء ، ورأى رستم نفسه ينزل من علياء نفوذه بسرعة ، ويجرد من سيفه وعمامته ، وينظر إليه بعين الشك من الحكومة الجديدة . ألم يكن رستم أخلص حرس الامبراطور وأقربهم إليه وأشدهم وطأة على أعدائه ؟ وأحيط رستم برقابة صارمة ، ونقل عيون الحكومة الجديدة عنه أغرب الأخبار ، وقيل أنه يدبر مؤامرة لقلب الحكومة الملكية ؛ والواقع أن رستم كان أبعد الناس عن هذه

الريب ، ولم يكن يود إلا أن يعيش فى سلام بعيداً عن ذلك الماضى الذى يريبه ويزعجه

ولما عاد الامبراطور من منفاه فى إلبا توجس رستم شرا ، وهرول إلى سيده القديم يلتمس الصفح والاعادة ؛ فأبى الامبراطور رؤيته ، ورده باحتقار . وكان رستم يقيم عندئذ منزويا فى بعض ضواحى باريس . فلم يكن أحب إلى نفسه من أن يستأنف حياة الانزواء والهدوء ؛ ولم يمض غير قليل حتى وقعت الكارثة الحاسمة وهزم نابليون فى واترلو وحمل إلى منفاه فى سنت هيلانه ؛ ولم يهتز رستم لهذه الحوادث ، وقنع من الحياة بالهدوء والسكينة ؛ وعاد إلى سكنى باريس بعد أن نسيته الحكومة الجديدة ، ولم تحاول إقلاق راحته ؛ بيد أنه لم يكن يتمتع بعد برخائه القديم بعد أن أنقصت رواتبه ، وكثر عياله ، فنراه فى سنة ١٨٢٤ يسافر إلى لندن إجابة لدعوة أحد أصحاب المسارح ، وهنالك يعرض نفسه فى ثيابه الشرقية القديمة ويكسب بذلك بعض المال

وقضى رستم فى لندن نحو عام ، ثم عاد إلى باريس ، وانتقل بأسرته إلى بلدة دوردان على مقربة من باريس ليعيش فيها ؛ وهنالك لم تفارقه صفته القديمة « مملوك الامبراطور » ؛ وكانت هذه الصفة تثير من حوله الفضول وتسبغ عليه مهابة خاصة ؛ بيد أنه لم يكن يتمتع يومئذ بشئ من مظاهره الشرقية القديمة ؛ وكان يحب الصيد ، ويغشى مجتمعات المدينة ، ويتصل بكثير من أهلها بأواصر الصداقة المتينة ؛ وكان كثيراً ما يقص ذكرياته عن الامبراطور ويفاخر بما لديه من آثار الامبراطور مما أفاضه عليه أيام عزه ؛ وكان بعض الساخطين عليه يرمونه بالخيانة ، ويقولون عنه إنه خائن لبلاده خائن لولى نعمته ، بيد أن رستم لم يكن ليعبأ بهذه المطاعن ، وكان يحتفظ دائماً بسكينته وهدوء نفسه

وتوفى رستم فى سنة ١٨٤٥ ، فى الرابعة والستين من عمره ودفن بمقبرة دوردان وكتب على قبره ما يأتى « هنا يثوى رستم رضا ، مملوك الامبراطور نابليون سابقاً ؛ ومولده بتفليس من أعمال الكرج » ؛ وكانت وفاته خاتمة لآخر الذكريات الحية فى تاريخ الحملة الفرنسية على مصر (١)

محمد عبد الله عنان

---

(١) استقينا معظم التفاصيل الخاصة بحياة رستم من المؤرخ الفرنسى لنوتر Lenotre

وحى الثلاثين

للأستاذ عبد المنعم خلاف

على مقطع من مقاطع الزمن الذى ينبنى ، أقف مستدبراً مواكب الحياة الحاضرة ، لأستعرض هذه العقود الثلاثة التى كونت جسمى ذرة ذرة ، وملأت رئتى شهقة وأفرغتها زفرة ، وسلسلت عقلى فكرة فكرة !

وأريد فى وقفتى هذه أن يكون فى روحى غيبوبة وامتداد ، وفى ذاكرتى صحو واجتماع ، وفى قلبى حنين واهتياج ، وفى عقلى سكون وإدراك ، وفى جسمى صحة ووُقود ، وفى قلمى حساسية وبيان . . . فإن الصور التى أرصدها مخبوءة فى رُكام من أيامى البالية التى لبستها أمام الشمس والقمر فطبعاها بالخاتمين « الأبيض والأسود » ثم نضوتها ومعها بسمة أو دمعة أو فكرة أو ذكرى ، أو قطعة من قلبى أو هزة من جسمى فى غرارة الطفولة أو نحوة الصبا أو فَوْعة الشباب الذى يوشك أن يمضي به ما أشاب الصغير وأفنى الكبير من كرّ الغداة ومرّ العشى . . . !

***

أمس ! يا وادى الظلال الساكنة من حياتنا العاملة الناصبة . أنا الآن فى حركة إدبار وارتداد إليك ، فى ساعة ليس لى فيها حاضر راهن يشغلنى ، ولا أمل غائب يغازلنى ، واقفٌ فيك على أطلالى ! أبحث فيها عن صور عينى ولما فيك ظلال ، وأنغام أذنى ، ومنها بك أصداء . . بل إنى لأبحث عن سرى وميراثى من عهد آدم حادراً فى الأصلاب متنقلاً فى الأحقاب فى عالم غيبى ومشهدى !

فمن لى بما يَروى لى ما بين مُبتداى ويومى هذا . . ؟ إنها شُقّة بعيدة أحسب أنها تُعمى تهاويلَ الخيال المسعد !

***

وقد قالت « الفسلجة » : إنى صورة تتجدد فيها خلايا جسمى كل سبع سنين . . . فلستُ أنا الجسم الأول ولا الثانى ولا الثالث ولا الرابع . . . وليس فىّ بقية منها ، فإذا بحثت عن أجزائى التى ماتت وأبعاضي التى غُيِّبت ، فلن أجدها إلا فى ذلك الجسم العظيم